ابن خلدون : واقع المثقف العربي في القرن الرابع عشر

بقلم خليل احمد خليل

كان الشاعر الشعبي فيكتور هيجو يعتقد ان الكلمة كائن حي . وحيوية الكلمة مرتبطة ارتباطا عميقا بحيوية الشعب اجمالا . الفكرة التي تولد ، تولد لتخترق صمت الواقع وضجنه . الفكرة توسع المدارك، تفتح فضاء او تساعد على رسم طريقها . كيف يمكن للفكرة التاريخية ان تصمد امام التطور ؟ كيف يمكن لعالم اجتماع يعيش في القرن العشرين ان يعود الى مراجعة اثار عالم كابن خلدون ، من علماء العرب في القرن الرابع عشر ؟ ماضينا العربي فكريا هو قاعدة من قواعد انطلاقنا . نحن لا نقول ان علينا ان نرجع الى هذا الماضي لتكريسه كما كان ، بطريقة التكرار التاريخي ، وانما علينا ان لا نتنكر لحياتنا الماضية التي تختلف طبعا عن حياتنا الحاضرة اختلافا عاما ، وان لا نعتمد الحاضر وحده كمنطلق فكري . الاطلاع على الماضي بوعي امر جوهري . والذين اطلعوا على ابن خلدون من الغربيين اعتبروه « عبقرية شاذة » عند العرب ، لكن الذين اطلقوا على التراث الفكري العربي افتنعوا بان مثل هذا الشذوذ العبقري أمر طبيعي لدى العرب — في الفلسفة والادب والعلوم — .

عبد الرحمن بن خلدون كتب في مرحلة سوداء سياسيا ، كان يتخللها بعض الاضواء المهمة في بعض اجزاء الامبراطورية العربية المتمزقة سياسيا ، المستقلة نسبيا . فقد ظهر الادب الشعبي العربي بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر : ألف ليلة وليلة كاملة ، سيرة عنترة ، سيرة الظاهر بيبرس سيرة بني هلال ، سيف التيجان ، سيف بن ذي يزن ، ظهر ايضا عبد الرحمن بن خلدون وابن الخطيب والادب الشعبي — الشعر العامي كما عند ابن شجاع مثلا — . هل هناك انحطاط فكري عند العرب؟ هل تغير الاتجاهات الفكرية وتطورها يعني الانحطاط ؟ هذا موضوع اخر، الا اننا نرى ان العرب عرفوا مرحلة ركود جزئية وان ظهور الادب الشعبي في مرحلة الاستعمار السياسي لا تعني ابدا ان ثمة انحطاطا فكريا بالذات ، وانما هناك ركود اجتماعي قوامه ضعف همة العرب بعد انقسامهم .

ان دراستنا لعبد الرحمن بن خلدون تسمح لنا بتوضيح نقاط كثيرة :

١ — الاطلاع على مرحلة مهمة من تاريخنا العربي : الحالة السياسية في المغرب عموما ، تجربة ابن خلدون السياسية والعلمية ، حالة التعليم والفكر عند العرب ، منهج الباحث العربي .

٢ — الاحتكاك احتكاكا مباشرا بابن خلدون المفكر من خلال مقدمته .

٣ — الاطلاع على مدى اهمية مفكر كبير كابن خلدون وكيف يمكن الحكم عليها من خلال الحاضر العربي .

ونحن لا نخفي اننا اكتفينا في عملنا هذا بالاطلاع على كتاب « التعريف بابن خلدون » للمؤلف نفسه ، والمقدمة لكتاب العبر . وتركنا هذا الاخير جانبا ، نظرا لطوله ، ولاننا لا ننوي الخوض في مجال التاريخ الذي لا نعرف عنه الا اشياء عامة لا تسمح لنا بتقييم اثره التاريخي .

١ — التجربة العلمية والسياسية

ابن خلدون لا يفصل تجربته السياسية عن تجربته العلمية ، وانما يراهما مترابطتين ، متماسكتين ، تولدان في الواقع وتعيشان في سطحه او في اعماقه وتخلقان معا « فضاء فكريا » ، ونحن اذ نفصل تجربته العلمية عن تجربته السياسية فانما نفعل ذلك للايضاح والتسهيل المنهجي لا اكثر . فما هي تجربته العلمية ؟ ان الامر المهم ليس في ان نعرف فقط كيف تعلم ابن خلدون وماذا قرأ ، ولا في ان نعرف بمن تأثر وعلى من اثر وانما في أن نتعرف علميا على مؤسسة من مؤسسات العرب المهمة نعني : العلم والتعليم . ذلك ان علم الاجتماع التربوي الذي ولد منذ عهد قريب جدا في اوروبا واميركا اثار اكبر المشكلات المعاصرة : الصراع الطبقي ، فرض الفكرولوجيا الارسطقراطية على الطبقات الشعبية ذات الفكرولوجيا المستغلة والمستعمرة ماديا وثقافيا في آن ، وان هذا العلم المولود قد شق دربا جديدا في فهم تغيير تركيبات المجتمع البشري بواسطة الثقافة المسيطرة او انتصار الثقافة المسيطرة عليها . اذن ، رغم ان ابن خلدون لم يقصد في « التعريف » معالجة مثل هذه المعضلات المذكورة ، فقد تعرض لعلم الاجتماع التربوي في مقدمته — وان لم يسمه باسمه — وسوف نعود الى هذه النقطة المهمة عندما نتناول مقدمته بالدرس . وكتاب « التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا » من منشورات القاهرة ، ١٩٥١ ، وقد عارضه بأصوله وعلق حواشيه محمد بن تاويت الطنجي . وهذا الاستاذ لم يتعرض وللاسف لدراسة محتوى الكتاب فأخذنا ذلك على عاتقنا . لقد كون معاصرو ابن خلدون صورا كثيرة عنه ، ونحن نكتفي بالصورة التي قدم بها نفسه . ولا ننوي ان نعرف مدى صدق ابن خلدون ، فليس باستطاعتنا ان نستعيد ماضيه ونجزئه وندرسه فنحن مضطرون لتصديقه ، ولا نؤمن أن مقارنة صورنه بالصور الاخرى تسمح لنا بتوضيح مدى صدقه .

أ — تجربته الفكرية

التجربة الفكرية وليدة المجتمع الحي بحركاته وتموجاته . الا ان ثمة نقطتين مهمتين لا بد من توضيحهما : اسرة ابن خلدون وعلاقاته الفكرية مع الطبقات المثقفة من معلمين ومفكرين وادباء . ابن خلدون عربي يمني ، ولد في تونس عام ٧٣٢ هجرية. وأهم ما يميز عائلته الانشغال بالعلم والسياسة . فعثمان جد ابن خلدون رجل سياسة ورجل علم . يقول ابن خلدون عن اسرته « ولا يزال (بينهم) الان في اشبيلية ثابت الاصل . ثابت الفرع (موسوم) (١) بالرياسة السلطانية والعلمية » « ولم يزل بيت بني خلدون باشبيلية ... سائر ايام بني امية الى أزمان الطوائف وانمحت عنهم الامارة بما ذهب لهم من الشوكة». فهذا الانشغال بشؤون القيادة السياسية والفكرية غذى بلا ريب شخصية ابن خلدون ونماها ، الا ان تجربته الشخصية ومغامرته الفريدة بلورت معالمه وفتقت براعم نبوغه وفتحت لها أفقا وطريقة .

اما علاقاته الفكرية فهي متعددة . نجد في القرن العشرين عددا من المفكرين العرب ترجموا حياتهم وتجربتهم الفكرية نذكر خصوصا الدكتور طه حسين في كتابه « الايام » والدكتور احمد امين في «حياتي» فبينما يكتفي هذان الكاتبان الاديبان بسرد حياتيهما نفسيا فكريا ،يرسم ابن خلدون خريطة تجريبية لمغامرته بكل أبعادها . فما هي المؤسسة التربوية السائدة في المغرب العربي آنذاك ؟ درس ابن خلدون في المدرسة الاسلامية التقليدية . فقرأ القرآن العظيم كما يقول ، على « الاستاذ المكتب » ونلاحظ ان درجة الاستاذ المكتب قد اختفت من مدارسنا الحديثة ، فلا يمكن لاستاذ كبير ان يعلم الصغار الكتابة ويدرسهم كتابا مهما وصعبا كالقرآن الكريم . فهذا « الاستاذ » كان فقيها ونحويا ومكتبا في آن . وهذا يسمح ، كما نعتقد ، للطالب بالانفتاح على افاق عديدة ، الا ان ثمة صعوبة حقيقية تعترض سبيل المبتدىء ، والتي قد تؤدي به الى التشتت ذهنيا بدلا من التركيز والاتجاه . الا ان ابن خلدون قد قرأ على استاذه ، القرآن بالقرءات السبع افرادا وجمعا في احدى

---

(١) هكذا واردة في الاصل والصواب موسوما .

وعشرين ختمة ثم جمعها في ختمة واحدة . فهذا يعني ان تجويد القران عند العرب في القرن الرابع عشر كان امرا رئيسيا في تعليم الناشئة وفي تكوين فكرولوجيتها المستقبلية . فالعربية كانت آذ ذاك لغة دين ولغة حضارة ، وهذا يعطينا فكرة عن مدى تعقيد التعليم ومدى الارتباط الحاصل بين الدين والعصر . ونلاحظ من خلال اسلوب ابن خلدون مدى تأثره بالاسلام وبعقلية المؤمن ، فهو لا يذكر استاذا مات آلا ويتبع ذكره بـ « رحمة الله » . وهذا غير ملاحظ اجمالا في كتابات الغربيين وبعض العرب المعاصرين . قلنا ان العربية كانت لغة دين ، وكانت ايضا لغة حضارة . فالاستاذ المكتب ، كان يهتم ايضا بتدريس الادب والشعر خصوصا . فيذكر ابن خلدون ان عارض استاذه بقصيدتي الشاطبي - اللاميه والرائيه - في القراءات والرسم . وبعد ذلك عرض على استاذه كتاب التقصي لاحاديث الموطا لابن عبد البر . نستنتج ان قوام التعليم كان الفكرولوجيا الاسلامية من جهة ، والحضارة العربية من جهة اخرى . اما صناعة العربية فقد تعلمها على والده بتونس وعدد من الاساتذة . قد يبدو من الممل ان نذكر اسماء هؤلاء الاساتذة . غير ان الباحث يحتاج الى جلد وصبر وتفكير في أهمية مثل هذه الايرادات ، كذلك القارىء . فلذكرهم اهمية في تاريخ التعليم وفي التعرف على منهجهم . اهمية اخرى : التعرف على العصر وثقافته . فما هو منهج امام العربية والادب مثلا ؟ يقول ابن خلدون « واشار علي (ابو عبد الله محمد بن بحر) بحفظ الشعر فحفظت كتاب الاشعار الستة والحماسة للاعلم وشعر حبيب (أي أبي تمام) وطائفة من شعر المتنبي ، ومن اشعار كتاب الاغاني » . فلماذا يلح امام العربية على حفظ الشعر ؟ ما هي أهمية الشعر عند العرب ؟ وهل تتجاوب هذه المحفوظات مع حاجات العصر العربي في القرن الرابع عشر ؟ الم يكن المجتمع بحاجة الى العلوم الاخرى ، التي كان الغرب قد بدأ بتطويرها ؟ لا ريب ان مكانة الشعر قد كانت ولم تزل كبيرة عند العرب ، وان العرب شعراء قبل كل شيء . فلماذا هم كذلك ؟ نحن نفتح باب التساؤل . ثم أخذ الفقه عن الجياني والقصير بتونس . فهل تلتقي على صعيد واحد الفكرولوجيا الاسلامية - القران الكريم ، السنة ، الفقه ... - والفكرولوجيا العربية الحضارية ؟ يبدو لنا ان العرب في الماضي كانوا يرون ان كلا العاملين متممان لبعضهما البعض ، ولم يزل مثل هذا الاعتقاد سائدا في عصرنا . بقي ان نعرف اذا كان ذلك ممكنا في عصرنا الحاضر ، وهذا شيء آخر .

فابن خلدون قد توغل أيضا في عالم الامور الفكرية الخالصة ، فقد اخذ المنطق والاصلين وسائر الفنون الحكمية والتعليمية عن شيخ العلوم العقلية (الآبلي) . واخذ عن علي بن ترومبت العلوم العقلية وسواها . هذا يعني ان التعليم الديني كان يواكب التعليم الحضاري ، الا اننا نجد اخصائيين في كل فرع . اذن كان بامكان العرب تطوير العلوم العقلية والدينية في آن ، ولم يكن الاسلام يحول دون ذلك ، فتأخر العرب في تطوير العلوم الحديثة لم يكن ناتجا عن الفكرولوجيا الاسلامية وانما كان سببه الرئيسي رزوح العرب تحت نير الانقسام والفقر والاستبداد الذي لا نزال نعاني منه في عالمنا العربي المعاصر . لقد تطورت تجربة ابن خلدون الفكرية خلال مغامرته السياسية أيضا ، ولعله أدرك النضوج الحقيقي خلالها ، بفضل حزمه وبحثه ومغامرته .

ب - تجربته السياسية

بدأ مغامرته عند السلطان ابي سالم فتولى « الانشاء والتوقيع والسر » . نلاحظ أولا آن ثمة علاقة غير واعية بين التعليم والعمل الاجتماعي . فتعليم الادب والكتابة كان وظيفيا وليس رمزيا ، أي انه كان يلبي حاجة من حاجات المجتمع ولم تزل هذه الحجة موجودة في عصرنا رغم دخول الالات العديدة فالالة تسجل لكنها ليست ذات اسلوب مميز . لقد كانت مؤسسة التعليم التقليدية عند العرب لا تتعارض مع المؤسسات السياسية والقضائية او السلطانية كما يقول ابن خلدون . ويذكر انه خرج من تونس طلبا للعلم سنة ٧٥٣ هجرية . فهل كان العلم غايته الوحيدة ؟ فعندما حل المرينيون بالمغرب دعي ابن خلدون الى وظيفة فسارع الى الاجابة . وهذا يؤكد ان غرضه كان الحكم والادارة - الرياسة السلطانية - الى جانب الرياسة العلمية . وحينما انهزم صف ابن خلدون « نجا » بنفسه الى أبة . يحسن ان نلاحظ ان ابن خلدون « سينجو » في المعارك التي يخسرها انصاره ، ولعل ذلك عائد الى حنكه والى ايمانه بلا جدوى الالتزام ممتثلا بقول « يا رب نفسي» . وهذا ما نعاني منه أيضا في عصرنا الراهن ، فنحن نجد عددا من الادباء العرب لا يهزهم النضال العربي وكأن قضايانا الراهنة لا تمسهم أبدا . ابن خلدون رجل « نجاة شخصية » ، غير ملتزم ، فهل كان ملتزما علميا ؟ هل كان ذا موقف ؟ هذا ما سنناقشه حينما نتعرض لمقدمته .

فابن خلدون لا يهتم بمن ينتصر ، ولا بعقيدة المنتصر والمنهزم ولا يجهد نفسه في التعرض لاختيار طريقة في العمل السياسي - طريقة واعية - وانما يكتفي بتأييد المنتصر فينضم الى صفه ، الى ان ينهزم فيلحق بالمنتصر الجديد ، وهكذا دواليك . فلما استولى السلطان ابو عنان على بجاية يقول « فلما رجع السلطان ، وفدت معهم فنالني من كرامته ما لم احتسبه .. » فابن خلدون يعرف نفسه مكرما محترما .. فما سبب ذلك ؟ لان العلم كان رازحا في ذلك العهد تحت نير السلطان ولان المثقف العربي كان من ملحقات القصر السلطاني بصورة عامة - هناك استثناءات طبعا - .

التحق ابن خلدون بمجلس العلماء عند ابي عنان في فاس سنة ٧٥٥ هجريه . يقول : « ثم استعملني في كتابته والتوقيع بين يديه على كره مني » . لماذا ؟ اذا كان لا يرغب في ذلك فلم لا يتمرد ؟ انالسبب الحقيقي لم يكن كامنا في حب ابن خلدون في تلك المرحلة ، للتحرر الفكري والعكوف على العلم وأنما كان كامنا في نظرته التقليدية لرفعة شأن اسرته : « اذ كنت لم اعهد مثله لسلفي » . اذن غرضه هو الوصول الى منصب ارفع . وبعد ان خلع ابو عنان سنة ٧٥٩ هجرية خرج ابن خلدون من السجن ، اذ انه تآمر مع الامير محمد صاحب بجاية على السلطان ، فاودعهما السجن . وكانت نظرة ابن خلدون للشعر نظرة مصلحية لا فنية . فالشعر وسيلة للاستجداء والانتصار السياسي . وحينما كان في السجن نظم قصيدة استعطاف في مدح ابي عنان . ونلاحظ ان نظم الشعر كان ايضا يجيب على حاجات العصر ، فكم من شاعر صار غنيا بفضل مدح او هجاء ، أو نجا من الموت . كان الشعر اذن وسيلة شخصية لا تعبيرية ، كان عند معظم الناظمين والشعراء . ولعل هذا يفسر عدم ظهور شعراء أصيلين في القرن الرابع عشر في المغرب - باستثناء ابن الخطيب ، وابن زهر ، وابن شجاع ... -

وابن خلدون العالم قام بالدعاية السياسية التي لا تنفصل عن طبيعة العمل السياسي وتلتقي في بعض نقاط مع التعليم والاعلام والارشاد . لقد بث دعوة السلطان ابي سالم مع الخطيب ابن مرزوق بفاس . « وحرضنا شيوخ بني مرين وامراء الدولة على الوزير الحسن ابن عمر وسلطانه السعيد بن ابي عنان حتى اجابوا . » ولما انتصر ابو سالم ، استعمل عبد الرحمن بن خلدون سنة ٧٦٠ هجرية في « كتابة سره والترسيل عنه والانشاء لمخاطباته » ويقول ابن خلدون ان كلامه كان مرسلا . والكلام المرسل مستغرب عند أهل هذه الصناعة . « الكلام المرسل صعب ، لانه صعب الانتحال بعكس السجع . ثم تولى « خطة المظالم » اخر الدولة . ويذكر كعادته ان المنافسين قد سعوا به الى ان حصل الخلاف بينه وبين ابي سالم المريني . ولما ثار الوزير عمر بن عبد الله أقر ابن خلدون ما كان عليه . « وكنت اسمو بطغيان الشباب الى ارفع مما كنت فيه » . هذا تصريح رئيسي يبرر جزئيا سلوك ابن خلدون سياسيا وعلميا . فطلب من السلطان الاذن بالرحيل فأبى ، فاستعطف بقصيدة واعانه الوزير حتى اذن له في الانطلاق فاختار الاندلس. نلاحظ ان المثقف العربي كان خاضعا للسلطان ، وان طاقته الثورية كانت منعدمة او ضعيفة ، والذين كانوا يملكون مثل هذه الطاقة ، كانوا يحتاجون الى النظام السياسي الواعي الذي يستقطب طاقتهم ويحولها الى طاقة اجتماعية فعالة . ابن خلدون ، كان يحتاج الى مثل هذه الطاقة ، الا ان

انعدام وجود نظام سياسي واعي يعلل انعدام الطاقة الثورية الفردية . ولعل ظهور بعض الانظمة الثورية اليسارية في الوطن العربي قد ساعد ولم يزل ، على تطوير الطاقة الثورية عند المثقفين والعمال العرب . اذ ان الثورية الفردية تثير الفضائح اكثر مما تؤدي الى التبدل التركيبي الاجتماعي . وهكذا نرى ان العرب حققوا بفضل ثوراتهم من اجل خلق نظام معاشي وطليعي ، انتصارا مهما لا يمكن تجاهله ، وخطوا بـذلـك بفضل طريقتهم الاشتراكية الجديدة أهم المشكلات التي كانت تشغل عصر ابن خلدون . فبينما يحد النظام الثوري الاشتراكي من حدة الانتصارات الداخلية ويمنع تفكك الاواصر بين الطاقات ، كان العرب في القرن الرابع عشر في حالة قلق تاريخي شامل ، فالقرن الرابع عشر هو عصر القـلق السياسي ، الذي لا يجد أرضا صلبة ، يبني عليها . ومن هنا سر ضياع المثقفين العرب في القرن الرابع عشر ، وفي عصرنا في بعض البـلدان العربية التي لم تحقق ثورتها المنتظرة . اذن تنقل ابن خلدون وعـدم استقراره سياسيا وعلميا كان وليد القلق الحـضاري السياسـي والاقتصادي . والقرن الرابع عشر ان لم يكن عصر شك فـي قيـمنا وحضارتنا ، فقد كان عصر تآكل غوغائي وعشوائي . التـحول ضروري بشرطين : الوعـي والاتجاه . وهـذا ما كان يفتقر اليه ابـن خلدون وعصره . انتقل من افريقية الشمالية الى الاندلس فالتقى بالسلطان ابن الاحمر وبوزيره الشاعر الكبير ابن الخطيب ، فاهتز السلطان لقدومه كما يقول . الا ان ابن خلدون لم يمكث عنده سوى ثلاث سنوات من ١٣١٢ ميلادية الى ١٣٦٥ . فقصد الطاغية ملك قشتالة لاتمام عقد الصلح بينه وبين ملوك عديدة . لقد لعب دور السفير ، ودور القاضي والفقيـه والكاتب ... فلماذا كان ينقلب بين هذه الادوار الكثيرة ؟ الم يكـن يطمع ابن خلدون في لعب دور رئيسي في حياته ؟ ماذا يفعل ابن خلدون لو صار سلطانا ؟ هل يترك العلم نهائيا وينشغل عنه بالسياسة ؟ هـل يمكن القول ان فشله السياسي وتقلبه المتواصل دفعاه الى الاعتزال وكتابة المقدمة ؟ هذه فرضيات ، الا اننا نميل الى الاعتقاد بأن دور ابن خلدون الرئيسي كان سياسيا ،وكان دوره العلمي قبل عكوفه دورا ثانويا ، أو على الاقل لا يعادل الدور السياسي . فابن خلدون لا يحدثنا في « التعريف » عن تجربته كقارىء أو ككاتب ولا يبرر تبريرا مقنعا الدوافع التي جعلته يكتب مؤلفه التاريخي . اكثر من ذلك : لا يتحدث البتة عن حياته الوجدانية والوجودية ، وهو لا يطرح أي مشكلة قومية ـ مثلا أثر الاستعمار الاجنبي على العقلية العربية ... ـ طبعا هذا من لا اكثر . فنحن لا نطمع بمطالبته بأن يعالج كل مشاكل العصر . ترك ابن الاحمر ، ويذكر ان خلافا حصل بينه وبين الشاعر ابن الخطيب فخرج . لانه علم ان السلطان ابا عبد الله قد استولى على بجاية ، فرحل اليه فتولى الحجابة . والحجابة تعني في دول المغرب ، الاستقلال بالدولة والوساطة بين السلطان واهل دولته لا يشارك الحاجب فيهـا أحد . ولعل حب ابن خلدون لوصف تكريمه واستقباله يعبر عن نفسيته ومطامعه السلطانية يقول «... ثم وصلت الى السلطان فحيا ومدى وخلع وحمل واصبحت من الغد ، وقد امر السلطان أهل الدولة بمباكرة بابي ، واستقللت بحمل ملكه واستفرغت جهدي في سياسة اموره وتدبير سلطانه ، وقدمني للخطابة بجامع القصبة وأنا مع ذلك عاكف .. . الـى تدريس العلم .. » هذا الوصف المسهب الذي اقتطفنا منه هذه المقاطـع تظهر لنا بعض رغبات ابن خلدون العميقة « مباكرة بابي » . يرغب في ان يصير مقصودا ، مدبرا وقائدا .

وبعد ان قتل السلطان أبو العباس السلطان أبا عبد الله ، رفض ابن خلدون أن ينادي بمبايعة أحد أبناء السلطان القتيل وآثر الالتحاق بالسلطان المنتصر .. فالتحق به ونال كرمه وحبه ثم تركه قاصدا ابا حمو صاحب تلمسان . يقول : « وكان السلطان أبو حمو قد بلغه خروجـي من بجاية وما أحدثه السلطان بعدي في أخي وأهلي ومخلفي ، فكتب الي يستقدمني قبل هذه الواقعة وكانت الامور قد اشتبهت ، فتقـاديت بالاعذار ... » . لقد دار صراع عنيف بين السلطان ابي العبـاس والسلطان ابي حمو ، فرأى ابن خلدون ان الامور غير واضحة وان اتخاذ موقف امر صعب ، فآثر التريث والصبر ، فاخلاقيته لـم تكن اخلاقيه ملتزم لا يتردد في النضال من أجـل قضية عقيدة اعتنقها . كـان ابن خلدون ذا أخلاقية مصلحية . لكل واقعة موقف . وكانت سياسته سياسة ديالكتيكية ، وكانت خطوطها لا تعمل على ابراز خطة معينـة ، سوى رغبة ابن خلدون في التفوق السياسي والوصول الى أعـلى الرتب . يقول : « فلما وصل السلطان ابو حمو الى تلمسان ، وقد جزع للواقعة ، اخذ في استئلاف قبائل رياح ، ليجلب بهم مع عساكره على اوطان بجاية ، وخاطبني في ذلك لقرب عهدي باستتباعهم وملك زمامهم ، ورأى أن يعول علي في ذلك فاستدعاني لحجابته وعلامته » .. « وكان أخي يحيى قد خلص من اعتقاله ببونة وقدم علي ببسكـرة ، فبعثته الى السلطان ابي حمو كالنائب عني في الوظيفة متفاديا عـن تجشم أهوالها ، بما كنت قد نزعت عن غواية الرتب ، وطال علي اغفـال العلم ، فأعرضت عن الخوض في أحوال الملوك وبعثت الهمة على المطالعة والتدريس .. » . اذا كان ابن خلدون مقتنعا فعلا بأهوال الحكم فلماذا يجشم أخاه يحيى صعوبات كهذه ؟ ان موقف ابن خلدون واضح ، فهو اذ يقول انه ينزع الى العلم ، فذلك صحيح لان تجربته العلمية لـم تنفصل عن تجربته السياسية ، وانما كان ثمة حوار متواصل بيـن الاثنتين قوامه رغبات ابن خلدون العميقة وتمثلها في نوع من « التعويض النفسي » . فهو اذ يفشل في تجربته العلمية يلجأ الى التجربـة السياسية وبالعكس . ودليل ذلك انه بينما كان منقطعا الى التدريس في خلوته بالعباد عند رباط الولي ابي مدين ودعاه السلطان عبد العزيز استجاب لدعوته « فلم يسعني الا اجابته وخلع علي وحملني » . « ثـم اتصل مقامي ببسكرة ، والمغرب الاوسط مضطرب بالفتنة المانعة مـن الاتصال بالسلطان عبد العزيز ... » وهو لا يلبث ان يجري في التيار السياسي ، وان كان محتفظا بوعيه المصلحي وبرغباته الشخصية ، الا انه يضع نفسه فجأة في خدمة سلطان اخر . بعد ذلك عاد ابن خلدون الى المغرب الاقصى سنة ٧٧٤ هجرية ـ ١٣٧٢ ميلادية . فلم يتم لـه الاتصال بالسلطان عبد العزيز المريني الذي توفي في نفس العام . وفي فاس استعاد مكانته « أثير المحل ، نابه الرتبة ، عريض الجاه ، منوه

قريبا

حكايا للحزن

مجموعة قصص جديدة بقلم

اديب نحوي

مؤلف « حتى يبقى العشب اخضر » و « جومبي »

منشورات دار الاداب

المجلس عند السلطان ... » « وأما أنا فكنت مقيما في فاس في ظل الدولة وعنايتها ... واذن للناس جميعا في مباكرة ابواب السلطانين (ابي العباس والامير عبد الرحمن) من غير تكبر فكنت اباكرهما معا » ان عودة ابن خلدون العالم الى الالتقاء بابن‌خلدون السياسي أمر طبيعي، فهو في الحقيقة متردد في اتجاهه أعظم التردد ، فهو يريد ان يلعب الدورين معا ، والواضح ان كلا الدورين رئيسي في الحياة الاجتماعية ، فكانت نتيجة ذلك ولادة صراع أدى الى ازدواجية شخصية ابن خلدون وفكك بالتالي وحدة تفكيره وأفقه . فهو لا يكاد يقرر امرا حتى يعزم على عمل اخر ، وهو لا يكاد يستقر بمكان حتى يبحث عن مكان اخر . هذا القلق هو ثمرة شجرة الاضطراب السياسي التي لم تمتد جذورها كما يجب في أرض الواقع ، فجاءت ثمراتها غير ناضجة وغير مستساغة كثيرا ، مما أدى الى عدم ظهور فكرولوجيا صحيحة تسمح للمغرب العربي المتمزق باستعادة وحدته القومية والثقافية . فالمشكلة تصير اكثر تعقيدا حينما نرغب في جعل النشاطين السياسي والعلمي فعالين معا وبنفس المقدار ، واما حينما نضحي أحدهما دون الاخر فاننا نكون قد آثرنا شل نظام رئيسي من انظمة الحياة ، ومنحنا الاخر وجوده الكامل ، فيتحكم بكل شيء ويفقد الدوران الاجتماعي مرونته وحركته الصحيحة . من هنا كانت بداية الازمة وبداية الضياع بين سطح الواقع واعماقه .

فما لبث ابن خلدون ان أزمع على السفر الى الاندلس مرة اخرى، الا ان أهل الدولة لم يجيزوا أهله وولده ، وساءهم استقرار ابن‌خلدون في الاندلس لسببين رئيسيين :

١ ــ كان اهل الدولة في المغرب الاقصى يتهمون ابن خلدون في حمل السلطان ابن الاحمر على الميل الى الامير عبد الرحمن .

٢ ــ اتهامه في السعاية لخلاص لسان الدين ابن الخطيب الوزير الشاعر .

لقد بعث ابن الخطيب برسالة الى ابن خلدون يرجوه فيها في ان يتوسط في شانه لدى أهل الدولة ، فحاول ابن خلدون الا انه فشل ، اذ ان الشاعر ابن الخطيب كان قد قتل بمحبسه . بعد ذلك عاد ابن خلدون من الاندلس الى تلمسان . وكان من عادته ان يخرج دائما دون اهله ، ثم يلحقون به فيما بعد . ولعله كان يؤثر النجاة الشخصية من ناحية ولا يرغب في تجشيم أهله أهوال مغامرته السياسية من ناحية اخرى . وخرج من تلمسان لاحقا بأحياء أولاد العريف ، ونزل في قلعة ابن سلامة ــ قلعة تاوغزت من بلاد بني توجين.

نلاحظ ان ابن خلدون كان شديد الحذر في سلوكه السياسي ، وكان يجد تقريبا لكل أزمة منفذا . وهو لا يحدثنا ابدا عن حياته العائلية ، خصوصا عن علاقته بزوجه وولده . ولا يكاد يحدثنا عن مطالعاته ولا عن كيفية كتابته . لقد التزم في كتابه طريقة خاصة : فهو يفضل رسم الخطوط العريضة لحياته التاريخية مظهرا أهميتها من خلال تلاحم القرن الرابع عشر وتآكله . فبينما كانت الحمى السياسية متفشية بما يتبعها من اضطراب وفوضى ، كانت الحمى العلمية تنتاب بعض المغربيين . وحينما جاء دور العلم ، لم يبخل ابن خلدون عليه ، فأوفاه حقه او حاول ذلك . فالّف في القطعة مقدمة كتاب العبر الى اخبار العرب والبربر وزناتة ، وكان في كتابته يعتمد على ذاكرته ويلجأ احيانا الى مطالعة الكتب والدواوين التي يحتاج اليها . فقام بمراجعة السلطان ابي العباس ناويا الرحلة الى تونس . وكان له ذلك في شعبان سنة ٧٨٠ هجرية . يقول : « وبعثت عن الاهل والولد وجمعت شملهم في مرعى تلك النعمة .. » . نلاحظ ان ابن خلدون يذكر باستمرار ان السلاطين والامراء الذين لاقاهم في مغامراته كانوا يكرمونه دائما فلماذا كان يتخلى عنهم ؟ لعل طموحه الفكري والسياسي الذي لا يحد كان الباعث الحقيقي على اشتداد توتره الكياني ، فما كان يهمه ليس الملك المادي ، بدليل عدم استقراره ، وانما الملك السياسي او الرياسة الروحية بما يتبعها من جاه وملك مادي وغلو عقلاني وقيادي . ففي تونس طلب السلطان ابو العباس من ابن خلدون ان يتمم كتابه « الى اخبار الدولتين وما قبل الاسلام » ففعل ، ورفع نسخة منه الى مكتبة السلطان . ثم مدح السلطان بقصيدتين . ثم أظلم الجو كعادته بينهما . فخرج الى مصر زاعما انه يرغب في قضاء فرض الحج ، فكان له ذلك سنة ٧٨٤ هـ. ١٣٧٢ م. . رحل الى مصر وحيدا، وأقام شهرا بالاسكندرية لتهيئة اسباب الحج . « ولم يقدّر عامئذ فانتقلت الى القاهرة اول ذي القعدة » . ويصف ابن خلدون القاهرة فيقول : « فرأيت حضرة الدنيا وبستان العالم ومحشر الامم ومدرج الذر من البشر وايوان الاسلام وكرسي الملك ، تلوح القصور والاواوين في جوه وتزهر الخوانك (ق) والمدارس بآفاقه وتضيء البدور والكواكب من علمائه ، قد مثل بشاطىء بحر النيل نهر الجنة ومدفع مياه السماء يسقيهم النهل والعلل سيحه ... ومررت في سكك المدينة تغص بزحام المارة وأسواقها تزخر بالنعم » . نحن لم نقل ان ابن خلدون اديب ، وانما هو عالم ، ولكننا حينما نقرأ وصفه للقاهرة ، نشعر فعلا ان ابن خلدون عالم واديب . فهو اذ يبين عظمة القاهرة علما واسلاما ، يبين روعتها أرضا وسماء وازدهارها روحا ومادة . ويضيف ابن خلدون « فقلت له (لابي عبد الله المقري) كيف هذه القاهرة ؟ فقال : من لم يرها لم يعرف عز الاسلام » . كانت القاهرة في القرن الرابع عشر عز الاسلام أي انها كانت الارض المخلصة للمؤسسات الاسلامية ، المبشرة بالفكرولوجيا الاسلامية عن طريق الازهر والمدارس والخوانق . ولعل جموح العالم الخلدوني قد دفعه الى تغيير مناخه الفكري والتعرف على مناخ اخر . فجلس للتدريس بالجامع الازهر واتصل بالسلطان . وكان في مصر مدارس للاوقاف كالتي نجدها في لبنان حاليا وسواه . وعمل ابن خلدون عالم واديب . فهو اذ يبين عظمة القاهرة علما واسلاما ، ثم تولى منصب القاضي المالكي سنة ٧٨٦ هـ . ثم لا يلبث ان يظلم الجو بين الخلدوني والسلطان . فابن خلدون هو البطل المتقلب المحسود أبدا . يقول : « فكثر الشغب عليّ من كل جانب وأظلم الجو بيني وبين أهل الدولة . ووافق ذلك مصابي بالاهل والولد ، وصلوا من المغرب في السفين ، فاصابها عاصف من الريح فغرقت وذهب الموجود والسكن والمولود ، فعظم المصاب والجزع ورجح الزهد ، واعتزمت على الخروج عن المنصب فلم يوافقني عليه النصيح ممن استشرته ، خشية من نكير السلطان وسخطه » . لقد كانت المدارس بمصر تزود الطلاب بالعلم ، وكانت الخوانق تقام لاعانة الفقراء على التخلق بآداب الصوفية السنية في مطارحة الاذكار ونوافل الصلوات . وكانت الدولة التركية معنية بذلك . « واقتدى بسنتهم (أي بسنة أهل الدولة التركية بمصر والشام) في ذلك من تحت أيديهم من اهل الرياسة والثروة فكثرت لذلك المدارس والخوانق بمدينة القاهرة ، وأصبحت معاشا للفقراء من الفقهاء والصوفية » . وكان بمصر مدرسة من انشاء صلاح الدين الايوبي وقفها على المالكية يتدارسون بها الفقه ، كما وقف أخرى على الشافعية . هذا يعطينا فكرة غير واضحة عن تعليم الفكرولوجيا الاسلامية في مصر. ويعيننا على فهم تطور التعليم الشافعي والمالكي . الا ان هذه الفكرة غير كافية ويا ليت ابن خلدون اهتم اكثر في الالحاح على دور التعليم بمصر انذاك . وابن خلدون لا يتردد في مدح ذوي السلطان مهما كانوا ، فمن خطبة له في القاهرة يقول : « ولم تزل الاجيال تتداول على ذلك والاعصار والدول تحتفل والامصار والليل يختلف والنهار حتى أظلت الاسلام دول هذه العصابة المنصورة من الترك ، الماحين بأنوار أسنتهم ظلم الضلالة والشك ، القاطعين بنصالهم المرهفة علائق اليمن والإفك ، المصيبين بسهامهم النافذة ثغر الجهالة والشرك ... » (ص ٢٨١ ــ ٢٨٢) ، كتاب « التعريف بابن خلدون » . نعتقد ان ابن‌خلدون واضح كفاية . فهل هذا نقد للعرب ومدح للاتراك المستعمرين؟ لنترك هذا الان وسنعود الى رأي ابن خلدون في العرب حينما نتعرض للمقدمة .

ــ التتمة على الصفحة ٦٢ ــ

بهذه الواقعة لا متقدم عليها (٩٧٧) وعلى الميتافيزيقا ، وبشكل مشروع ، ان تحاول تحديد طبيعة ومعنى ما هو سابق للتاريخ (٩٧٩) وان تضع الفرضيات التي تفسر ، ولكن بتفسير احتمالي ، ما لا يدخل ضمن نطاق الانطولوجيا (٩٧٦ - ٩٧٩) .

والواقع ان حدس سارتر الاساسي هو الوجود الانساني كحرية ، والحرية كواقعة شعورية تدرك انها بوصفها واقعة ، لا يمكن ان تتقوم بذاتها ، وانها بحاجة الى الماهية لتبرر وجودها . وكل شيء يجري كما لو ان الوجود بمجموعه الذي هو ايضا واقعة (فردية وعينية كما رأينا) اذ يتحسس بذات النقص ، يتفكك من الداخل لينبثق فيه الشعور معبرا عن ذات الحاجة وساعيا وراء ذات الهدف. وعندئذ يبدو له « ما هو علة ذاته » او « المطلق » (اي الوجود كما تحدد في الارسططالية - التومائية خلال القرن الثالث عشر) يبدو له بصيغة الغائب . وهذا الغياب، هذا النقص هو المحرك للوجود السارتري كله ، او بشكل ادق ، وجود الانسان .

فالوجود الانساني ، بما هو موجود ، قائم بين حدين: (ما قد كان) اي ما حققه و (ما سيكون) اي الغاية ، وبعدها ما هو علة ذاته ، او بين حركتين : الرفض والهرب الى الامام ، فهو حركة فريدة في فسحة العدم وشفافيته. وعندما يتركز في هذه النقطة تبدو الحرية لسارتر كقوة لا تقتصر على اعدام ما هو في - ذاته ، بل تهدم نفسها من الداخل - الحرية تقرض نفسها (٧٦٣) - لتتجدد باستمرار ، وكأن مناطق الوجود ، كأن البناء الانطولوجي لم يدفع الا لابراز هذه الحركة .

***

يمكن تجميع ما أخذ او قد يؤخذ على الانطولوجيا السارترية في النقاط التالية :

١ - ترى الاشياء (الفي - ذاته) شتاتا يضيف اليه الفكر النظام (السبب ، القانون ، وكل شرح آخر) من الخارج ، فهي لا تصلح كأساس لفلسفة للطبيعة .

٢ - وكذلك عالمها الانساني ، فهو مجموعة حريات ، كل منها كيان مستقل ، وكل منها تسعى لامتلاك الاخرى اذ تحولها بالنظرة الى شيء تصهره في كيانها (١) ، فهي جذريا فلسفة فردية لا يمكن ان تبرر قيام التاريخ والمجتمع كوجودين مستقلين عن الفرد .

٣ - ان المطلق فيها (اذا صح وكان ما هو علة ذاته مطلقا) حضور على صيغة الغياب ، فهو يحرك الوجود دون ان يتمكن من تقويمه ، والحرية لا تحيل الا الى ذاتها ، فلا يمكنها ان تأمل في مستقبل امثل ، كما في الماركسية ،ولا

(١) لسارتر في علاقة الانسان بالاخر نظرية جديرة لجدتها بدراسة خاصة ومطولة . راجع ، بشكل خاص الفقرة ٤ من الفصل الاول ،القسم الثالث من كتاب (الوجود والعدم) .

ابن خلدون

- تتمة المنشور على الصفحة ٢١ -

وابن خلدون شاعر فاشل ، الا ان اسلوبه الادبي يثير الاعجاب . يقول واصفا رحلته : « ولما سبحت في اللج الازرق وخطوت من افق الغرب الى افق الشرق حيث نهر النهار ينصب من صفحه المشرق ، وشجرة الملك التي اعتز بها الاسلام تهتز في دوحه المعرق ، وازهار الفنون تسقط علينا من غصنه الورق ، وينابيع العلوم والفضائل تمد وشلنا من فراته المغدق » . حتى ولو كنا لا نحب السجع ، فان هذا السجع المرسل محبب نسبيا . وابن خلدون يكرر افكاره وحوادث حياته كثيرا : فتارة يكرر خبر ولايته القضاء بمصر وتارة يكرر خبر غرق اهله (ص ٢٨٥) وخبر الحج (ص ٢٩٣) وفي صفحة ٢٩٧ - ٣١٠ يعرف بالامام مالك بن انس وبكتبه وغرض الكتاب هو التعريف بابن خلدون لا بمعارفه . ثم تولى ولاية خانقاه بيبرس الى ان وقعت فتنة الناصري ، فعزل منها . وكان للفقهاء دور مهم في القرن الرابع عشر ، اذ انهم كانوا يعطون فتاوى تتعلق بشؤون الحكم . يقول ابن خلدون : « وكان الظاهر ينقم علينا معشر الفقهاء ، فتاوى استدعاها منا منطاش واكرهنا على كتابتها ، فكتبناها وورينا فيها بما قدرنا عليه ، ولم يقبل السلطان ذلك وعتب عليه (على منطاش) وخصوصا علي ... » .

وقد حاول ابن خلدون أن يوطد علاقات المشرقيين بالمغربيين - لم تكن واردة لديه فكرة الوحدة العربية - فهو يسعى في تحسين العلاقات بين ملوك المغرب والملك الظاهر . فلما طلب صلاح الدين الايوبي معاونة اسطول ملك المغرب يعقوب المنصور من بني عبد المؤمن للوقوف في وجه الفرنج والدفاع عن سواحل الشام ، قعد ملك المغرب عن اجابته في الاسطول . لم يكن في القرن الرابع عشر معنى حقيقي للدفاع القومي العربي ، وكان طغيان المصالح السلطانية قد بلغ ذروته . في القرن العشرين ، وامام اسرائيل ، لا نزال نعاني نفس المشكلة . ويرى ابن خلدون ان سبب هذا التقاعس يعود الى وجود كاتب عند يعقوب المنصور يدعى عبد الرحيم البيساني الذي يعتقد أن لواء الخلافة لا يعقد لشخصين في الاسلام . ولا نزال ايضا نعاني جزئيا من آثار هذا الاعتقاد الخاطىء ، اذ ان قيام وحدة فدرالية او اندماجية لا يضر بمصلحة الامة العربية ، بل يساعد كثيرا على تجاوز مصاعب وازمات كثيرة . ولما انقرضت دولة الموحدين وجاءت دولة بني مرين من بعدهم تحسنت العلاقات بين عرب المشرق وعرب المغرب . الا ان هذه العلاقات لم تتجاوز - وللاسف - تبادل الهدايا الملكية من خيل وبغال . وكان المشرق العربي بحاجة ماسة للخيل ، فعين الملك الظاهر مملوكا من مماليكه لشراء الخيل من المغرب .

ثم تولى ابن خلدون ولاية القضاء الثانية بمصر من سنة ٨٠١ هـ. الى ٨٠٣ وسافر مع السلطان الى الشام للنضال ضد التتر . ويعلل ابن خلدون وجود الامم ويقسمها الى فئتين : العرب والترك ، ويورد نظرية الاقاليم السبعة وقد تحدث عنها باسهاب في مقدمة الكتاب الاول ، الجزء الاول . ولما انسحب فرج بن الظاهر واستسلمت دمشق آثر ابن خلدون لقاء تيمورلنك على العودة الى مصر لتوه . ثم رجع الى مصر وتولى فيها ولاية القضاء الثالثة سنة ٨٠٣ وتركها سنة ٨٠٤ ، ثم تولى الرابعة وعزل ثم الخامسة ، وتوفي في القاهرة سنة ٨٠٦ هجرية الموافقة ١٤٠٦ للميلاد .

وبعد ، فقد رأينا تجربتي ابن خلدون العلمية والسياسية ، فما هو المحتوى الفكري عنده وما علاقته بالواقع ؟

هذا ما سنعالجه في القسم الثاني من البحث .

خليل احمد خليل